عنوان المقال:

الهوية في أدب الأزمة رواية "لاروكاد "لعيسى شريط –أنموذجا

الأستاذ: شيخ عبد الرزاق – جامعة الجزائر 2 بن عكنون–

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى توضيح مفهوم الهوية وعلاقتها بالعولمة من جهة، ومحاولة الكشف عن تمظهرات الهوية داخل المتن الروائي الجزائري أثناء الأزمة من خلال رواية "لاروكاد " للروائي عيسى شريط من جهة أخرى.

تمهيد :

يمكن القول إن مصطلح الهوية مرنّ شديد الحساسية لصعوبة معالجته نظريا مهما كان التخصص، فداخله يلتقي الاجتماعي والنفسي والثقافي والتاريخي والإيديولوجي والسياسي . يضاف إلى ذلك التقاطع الموجود بين الذاتي والجماعي، وبين الفردي والاجتماعي، وبين الواحد والمتعدد، وبين الثابت والمتغير. هذه التداخلات تصبح أكثر حدة خصوصا وأن الانفعال الواعي أو اللاوعي في كثير من الأحيان يصبح هو اللازمة العامة التي تسود كل حديث عن الهوية.

فالهوية من المميزات التي تميز كل شعب عن غيره من الشعوب الأخرى، إذ لكل شعب هويته الخاصة به والهوية الجزائرية نقصد بها مميزات الشعب الجزائري (دين، لغة، والعادات والتقاليد والمقومات الثقافية)

هذا الشعب الذي عانى الأمرين من أجل الحفاظ على هذه الهوية، والوقوف ضد استعمار عاث ما يقارب قرن ونصف في هذه الأرض، عمل فيها كل جهده على محو هذه الهوية وتقزيمها، فقمع كل محاولة مقاومة تحريرية وحاول تجهيل الشعب وطمس الإرث الحضاري الجزائري المشترك، وإحياء النعرات التي تؤدي إلى ظهور جدل أو عداوة الإثنيات، وهذا ما أدى إلى تخلخل البنية الاجتماعية في الجزائر فأصبح المجتمع الجزائري يعاني حالة من التأزم والتنافر والشقاق. أدخلته فيما بعد في عشرية سوداء من الدماء والدمار أصطلح عليها بالمحنة الوطنية.

وقد كتب في هذا المحور الكثير من المؤلفات مما يسمونه ويصنفونه ضمن أدب المحنة، خاصة الكتابة الروائية التي تناولت هذه الفترة الحرجة وأسالت الحبر الكثير نذكر منها "سيدة المقام " "ذاكرة الماء "شرفات بحر الشمال "للروائي واسيني الأعرج،

"الورم "للروائي محمد ساري، "ذاكرة الجسد "و "عابر سرير "للروائية أحلام مستغانمي، ورواية "لاروكاد "للكاتب والناقد والسينمائي عيسى شريط التي نالت جائزة مالك حداد في طبعتها الثانية سنة 2004التي هي موضوع بحثن .

– 1 مفهوم الهوية :

يعرف المُعْجَمُ الوسيطُ "الصادر عن مَجْمَعِ اللُّغة العربية »الهُوِيَّةَ"بأنها":حقيقة الشَّيء أو الشَّخص التي تميزه عن غيره .ويُعَرِّفُ الجرجاني الهُوِيَّةَ بأنها" :الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النُّواة على الشجرة في الغيب المطلق."وفي المعاجم الغربية يحدد قاموس أكسفورد الهوية بوصفها"حالة الكينونة المتطابقة بإحكام، والمتماثلة إلى حدِّ التطابق التام أوالتشابه المطلق "

الهوية عملية تمييز الفرد لنفسه وتحديد حالته الشخصية .(1)وتساعد هذه العملية بما يميزها من سمات)اسم،جنسية،سن،حالة،مهنة(...،"الفرد في تسهيل معاملاته المختلفة مع الجهات التي تطالب بإثبات شخصيته.ومبدأ الهوية

المقصود به أن الموجود هو ذاته أو هو ما هو(2)، فلا نخلط بين الأمور أو بين الشيء وما عداه وأن لا نضيف للشيء ما ليس له .

لا يكتفي مصطلح الهوية بكل ماهو ذاتي فحسب، وإنما يتجاوز حدوده إلى صفات تخص الجماعة لأنه منظومة متماسكة من السمات المشتركة بين أعضاء الجماعة تميزها وتجعلها تعتز بذاتها(3)، فهي بذلك":مجموعة الصفات أو السمات الثقافية العامة التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الذين ينتمون إليها،والتي تجعلهم يعرفون ويتميزون عمن سواهم من الأمم (4)" ليمكننا القول أن "الهوية وحدة جماعة بشرية ما –كائنة ما كانت تناقضاتها أي تعددها –كما تتجلى في الخصوصيات،أي التجانس المتميز كما تصنعه الجغرافيا والتاريخ وكما تعبر عنه التطلعات الأصلية والأساسية لدى الإنسان . (5) "

والهوية ليست حالة من التملك،أو هبة تعطى ولكنها صناعة وبناء يتشكل ويتطور كلما دعت الضرورة إلى ذلك،فهي المنجز البشري الذي يكتسب قوته وفاعليته من خلال نوعية الجهد الإنساني(6)، في ضبط الخصائص الحضارية التي ابتدعتها

المجموعة البشرية من :لغة ودين وقيم ومهارات وفلسفة،لذلك اعتبر مفهوم الهوية موضوع جدل في أدبيات الفكر والثقافة.

- 2أنواع الهوية:

•**فردية:** تعتمد على الميزات الجسدية التي تميز كل كائن بشري عن الآخر من بين ملايين البشر وأبرز مثال على ذلك بصمات الأصابع التي تحدد أو تثبت هذا الاختلاف علميا.

•**وطنية أو قومية:** نسبة للوطن أو الأمة التي ينتسب إليها شعب متميز بخصائص هويته

وكتعريف إجرائي للهوية الوطنية أو القومية فإننا نقول:إن هوية أي أمة من الأمم هي مجموع الصفات أو السمات الثقافية العامة التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الأفراد الذين ينتمون إليها والتي تجعلهم يعرفون ويتميزون بصفاتهم تلك عما سواهم من أفراد الأمم الأخرى.

والاختلاف في مقومات الهوية الفردية والقومية هو اختلاف في النوع وليس في الدرجة فالهوية الفردية ذات سمات جسدية الأساس والهوية القومية ذات سمات ثقافية في الأساس فلا

يوجد تناقض بينهما بل مترابطتان، والعلاقة بينهما علاقة الجزء بالكل.

لهذا يجب الاعتراف بأن موضوع الهوية يتحرك ضمن حقل ألغام شديد الحساسية لأنه صعب المعالجة داخل كل ادعاء نظري كيفما كان تخصصه، فداخله تلتقي السوسيولوجيا بالسيكولوجيا والانثروبولوجيا والإيديولوجيا والسياسة .يضاف إلى ذلك التقاطع الموجود بين الذاتي والجماعي بين الفردي والاجتماعي بين الواحد والمتعدد بين الثبات والتغير بين الانفصال والاتصال .هاته التداخلات تصبح أكثر حدة خصوصا وأن الانفعال الواعي أواللاواعي في كثير من الأحيان يصبح هو اللازمة العامة التي تسود كل حديث عن الهوية.

- 3الهوية والعولمة:

يتفاعل مصطلح الهوية مع مصطلح العولمة في علاقة جدل وتجاذب،فالعولمة تطارد الهوية وتلاحقها وتحاصرها وتجهز عليها،وفي دائرة هذه المطاردة تعاند الهوية أسباب الذوبان متشبثة بحق الوجود والديمومة.ذلك "أن أكثر الاختراقات الغربية خطورة على الإطلاق هي محاولة طمس الهوية الثقافية للعرب والمسلمين

وتحطيم منظومتهم الحضارية ومحو ذاكرتهم الجماعية،..يلجأ الغرب في ذلك إلى تفكيك البنى الثقافية وتشويه القيم الدينية للعرب والمسلمين والنفاذ إلى معاييرهم الأخلاقية وخصوصياتهم المحلية وفلسفاتهم الحياتية بالوهم والتشويه(7)"، والسخرية والاستهزاء،والعجب أن من يساهم في ذلك عنصرا مساعدا ثلة من المجموعة محسوبا عليها.وإزاء كل هذا يمكن تحديد ثلاث هويات متمركزة في الذات:

- الهوية الموروثة :ذات جذور اجتماعية فكرية دينية محددة (كينونة).
- الهوية المكتسبة :اكتساب مهارات تحفظ بها مبدأ الاستمرارية (التفاعل).
- الهوية المرجوة والموعودة :جملة التفاعلات لمظاهر الكينونة في الهوية، وهي غير مكتملة)حركة توليد الفوارق في الهوية. إن الهوية بذلك حالة وجودية ومعطى حضاري للفرد في الجماعة.

من أسباب زعزعة الهوية في أنفسنا امتلاك الفرد للثقافة السطحية و التبعية وأحيانا التقليد الأعمى للآخر حتى في جلد

ذات هويته، زيادة على نمطية التعامل وخضوعه لمبدأ الازدواجية والعولمة.

وعليه، يجب أن لا نبحث عن فكر وتراث وهوية بديلة فذلك يؤدي إلى التباين، بل يجب بحث كيفية تطوير هويتنا، كونها حركة ونشاطا فعالان، تقوي مكامن القوة في معالم الهوية التي تميز الحضور الإنساني في هذا الوجود الكوني بكل خصوصياته الحضارية والثقافية والفكرية وغيرها .

ومن خلال التعريفات السابقة يتضح جليا بأن للهوية أنواع تحدد من خلال مكوناتها وسماتها المشتركة لكل مجموعة بشرية ومحاولة التميّز تخلق صراعا هوياتيا عند الفرد والمجتمع وحتى الأمة في مجابهة العولمة وتداعياتها فما هي تمظهرات هذا الصراع في المتن الروائي قيد الدراسة؟

- 1الهوية الفردية:

إن الحديث عن الهوية كثيرا ما يتجه إلى الهوية في صورتها الجمعية في تجاهل للخصوصية الفردية، وفي بحثنا عن ذواتنا نقف أمام سؤال وجودي :من أنا؟ فالفرد العربي يعاني من تنكر الوطن والجماعة التي آمنت بمقولة "لابد لكي تحيا الأمة، من

أن يقتل الفرد(8)" خطاب هوياتي يغيب الفرد كهوية وذات مستقلة، فتأخذ هذه الأخيرة أشكالا مغايرة في رحلة البحث عن الذات

أ -المرأة والهوية :

لطبيعة المجتمع الذكورية كانت المرأة الأكثر عرضة لقمع الذات وانتهاك الخصوصية فماهي إلا تابع لهيمنة الرجل لا يمكنها أن تتحرك خارج مجاله خاضعة لرغباته لا يمكنها رسم مستقبلها بنفسها كحال سعاد ابنة التهامي التي زوجها قصرا لصديقه غير آبه بصرخاتها أوبحبها لإسماعيل ابن الجيران، وحتى وإن تمردت فلابد من خضوعها لسلطة رجل في النهاية كحال جميلة التي تمردت على زوجها لكنها مستسلمة خاضعة لعشيقها الذي سلبها غنائمها من زوجها السابق.

ب -الإحساس بالضياع :

شعور يلتهم الفرد وهو يفتش عن ذاته في غابة الأعراف والتقاليد فلا يستبين طريقا ولايجد خلاصا يدور حول ذاته كالمشدوه حتى يفقد بوصلته وشخصية موسى السوكارجي أصدق مثال على ذلك، الذي يمتلك من الخصال النبيلة وحب الخير لغيره ما لا يمكله كثير من سكان حي لاروكاد لكنه بالمقابل أسرته الخمرة فلا

يكاد يصحو، تتقاذفه الشوارع وتلاحقه النظرات المحتقرة، ضياع آخر تمثله هوارية التي قذفت بها الظروف إلى هذا الحي وتزوجت رجلا من المنبوذين فيه، لكنها بقيت وفية له واعتنت به حتى توفي، فسلكت طريق الرذيلة وامتهنت أقدم حرفة في التاريخ ولما فعلت بها السنون فعلتها لم تجد مؤنسا إلا موسى السوكارجي الذي وجدت فيه العائلة، فتركت له أملاكها بعد وافتها.

أما ضياع إسماعيل فهو ضياع المحب العاشق الذي افتكت منه معشوقته ولم يستطع حراكا ولا وجد خلاصا، فلاذ بالوحدة يلوك أحزانه، فضاع لمّا ضاعت منه حبيبته التي لم تجد حضنا دافئا منذ فقدت والدتها فعاشت الغربة في بيت أبيها ولسان زوجته مسلط على رقبتها سيفا يدمي جراحها كل حين.

ج –التشتت بين الرغبة والعقل :

الرغبة في السلطة والمال وإرضاء الجسد من جهة والامتثال للعادات والتقاليد والأعراف والقوانين من جهة أخرى هواجس ترهن ممارسة الذات لخصوصيتها فتذوب في الذات الجمعية مما ينتج عنه كبح لمكنونات النفس وكبتها فتظهر كسلوكات منحرفة وهو ما تجسده فعلا الرواية عبر الشخصيات

التي رسمها الروائي بدأ من المسؤول الشاذ جنسيا إلى المقاول المرتشي والمجاهد المزيف والقهواجي الذي أصبح داعية ...

فالشعور بالذات يتولد عنه شعور بالانتماء للمجتمع وللوطن والكبت يتولد عنه الازدواجية في التعامل مع واقع لا يؤمن به وإن تعايش معه فتصبح الهوية مجرد شعار وقانون يُلتزم به نتيجة تغييب الذات وإلغائها.

-2الهوية الوطنية :

سؤال الهوية الوطنية طرح بشدة خلال الفترة الاستعمارية وأعيد طرحه غداة الاستقلال وأصبح أكثر إلحاحا في عز العولمة التي ألقت بظلالها على العالم، وهو ما ولّد تمزقا وانشطارا في الهويات الوطنية لمختلف الشعوب التي أصبحت خصوصياتها مهددة وتقاليدها منتهكة، والوضع الجزائري له خصوصيته في ظل الصراع القائم بين الموروث الاستعماري وتحديات العولمة، مما أفرز جيلا إحساسه بالوطن يتلاشى شيئا فشيئا لشعورهم بتنكر الوطن لهم مما يجعل الهوية الوطنية تعاني تأزما وتصدعا داخليا كما صورته الرواية.

أ -الجنون والانتحار :

إن التمزق والتصدع في الهوية كثيرا ما يقود إلى الجنون أو الانتحار كحتمية لهذا الانفصام الذي يعيشه الشخص الغريب في وطنه ممن يفقد الروابط التي تربطه بمن حوله فالهوية الوطنية تتخذ طابعا مأساويا إذا فقدت المشاعر بهجتها وتصبح مهددة بالتشويه والاختزال، فحسين المسرح مثال للمثقف الذي تتنازعه أفكاره التحررية والواقع المادي الذي لا يعترف إلا بمن يملك الثروات، يحاول الاستقرار على موضوع لمسرحيته يعالج فيه مشاكل وطنه لكنه يفشل فيصبح كالمجنون يلوك أفكاره في الشارع يعرضها على كل من يصادفه، ثم ما يلبث أن يبحث عن موضوع آخر وهكذا .وكذلك مثله شويحة الذي أفقده حب المال البوصلة فأصبح يطارد رزم النقود بأي وسيلة حتى ولو امتهن كرامته .

وسعاد الفتاة المتعلمة التي ربتها والدتها على الاعتداد بنفسها لا تجد للخلاص من مكيدة زوجة الأب والوالد الذي أعمته المنافع الشخصية عن بيع ابنته إلا الانتحار وسيلة للتعبير عن رفضها لواقع لا تريد عيشه .

ب –الإسلام والفهم المغلوط :

الدين من أهم مقومات الهوية الوطنية لكنه عرف تحولا دفع الكثير من الجزائريين مع بداية الأزمة إلى الوقوف موقف الشك مما هو قادم من الشرق عند فريق منهم وموقف التنصل من الموروث الديني لدى جيل جديد اتبع مذاهب حملتها المجلات وأشرطة الكاسيت كما يقول الروائي عيسى شريط" :يرتدون قمصانا بيضاء ومزركشة، لحى بعضهم كثة، والبعض الآخر تناثرت على محياه زغبات مازالت تحمل نعومة شعر الصبية ومنهم الأمرد تماما...يمررون له أحيانا كاسيت ترتيل القرآن بأصوات لم يسمعها من قبل وأخرى تحوي دروس وخطب ساخنة أغلبها للشيخ(كشك)(9)"

ج –فهم الماضي والتعايش مع الذاكرة :

تعالج الرواية الهوية في جانبها التاريخي من خلال التعايش مع الماضي وفهمه خاصة في شقه المتعلق بالثورة من خلال إثارة قضية المجاهدين المزيفين المجسدة في شخصية ساعد الكوردني الذي حصل على صفة مجاهد بمساعدة سي التهامي رغم أنه كان يتعامل مع جيش بلونيس أو قادة لوصيف الذي شكل

مليشيا لمحاربة الثورة وأمعن في تعذيب وقتل إخوانه ثم ما لبث أن أنتقل إلى الصف الآخر قبيل الاستقلال وأصبح صديقا للمجاهد الذي كاد أن يهتك عرض اخته ذات مرة لولا تدخل المير الوفي للثورة)وهو في الطرف الآخر (وحتى والد حسين المسرح البطل الذي شهدت له معارك النورمندي بالبسالة وقف موقف المحايد من ثورة التحرير لكنه في المقابل أخمد الفتنة غداة الاستقلال بين الإخوة الخصوم، هذه التجاذبات وهذا الصراع الحاصل في الهوية الوطنية ولد تشتتا وصداما كان من إفرازاته أحداث 5أكتوبر ومابعدها كما ورد في الرواية على لسان ضابط الشرط مخاطبا التهامي المقاول الجشع "أنت وأمثالك المتسببون في حدوث المظاهرات "ص239

-3الهوية القومية :

إذا كانت هوية أي أمة من الأمم هي مجموع الصفات أو السمات الثقافية العامة التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الأفراد الذين ينتمون إليها والتي تجعلهم يعرفون ويتميزون بصفاتهم تلك عما سواهم من أفراد الأمم الأخرى والتي تتمثل أساسا في الدين واللغة بالنسبة للأمة العربية هذا ما يجعلها تتقاطع مع الهوية

الوطنية لذلك كان حلم الجزائريين إبان الاستعمار تحقيق الوحدة العربية أو المغاربية على الأقل ولكن سرعان ما اصطدم بجدار الواقع وضرورات قيام الدولة الفتية التي تبحث لها عن مكان تحت الشمس .

أ –العروبة /الوحدة

ظل حلم الشرق الأسطوري ثاويا في المخيلة يتجسد في عمران المدينة التي أهملها أهلها فأغرقتهم نتانة لم يعرفوا مصدرها ...مدينة يتحسر السكان على ماضيها الزاهر فحي لاروكاد لم يعد هو نفسه بعد أن غادره سكانه الأصليون "يا إلهي كم تغير حي لاروكاد ...تحسر إسماعيل"ص (242)هذا الشرق الذي يعود في عباءة غول يقض مضاجعهم وقد غيّر عاداتهم وسفه أحلامهم وبدل ما ألفوه من دين وعادات حتى علي القهواجي لبس عبادة رجال الدين واعتلى المنبر خطيبا ومثله موسى السوكارجي الذي انظم للدعوة والتبليغ فلم تعد لاروكاد نفسها التي عرفوها وغزت حكايات الجهاد في أفغانستان وكرامات المجاهدين هناك يوميات المقهى بل من الفتيات من وهبت نفسها لأولئك المجاهدين الذين أصبح ذكرهم على كل لسان "الشباب يقرؤون

إعلانا بحماس يبدو مغاليا أحيانا، كل منهم يروي معجزة حدثت في أفغانستان ...كثير من الأخوات المسلمات الجزائريات اقترحن أنفسهن للزواج من المجاهدين "...ص(197)

ب –الغرب/المحتل :

تشبع الجزائريين بثقافتهم العربية وتمسكهم بالحضارة الإسلامية دفعهم لمقاومة كل أشكال التغريب وطمس الهوية التي مارسها المحتل طيلة العهد الاستعماري، ولكن مع ذلك ونتيجة الظروف التي أملتها الحياة كثير من الجزائريين تأثروا بالثقافة الغربية بشكل أو آخر مما ولد هذا التشتت والصراع الداخلي بين التمسك بالهوية القومية والاندماج في الحياة الغربية وهي حالة أبو ثامر المير أثناء الحرب التحريرية صاحب الثقافة الفرنسية الذي لم يتخل عن لباسه التقليدي حتى في جلسات الخمر مع الضباط الفرنسيين "ذلك الشاش الحريري ناصع البياض ملتفا حول رأسه في لفائف متناهية التناسق ...القندورة منمقة ومطرزة بخيط حريري يلتف في تناسق حول الرقبة وتتفرع الزخارف عند فتحة الصدر التي تبرز تعرجات خيط ذهبي مزينة لصدرية خيطت من قماش "الكشمير "الفاخر ذي اللون الأسود المتناسق ولون الحذاء

"بوسكال "الأنيق ..كان يجلس واضعا يديه على عصاه المزركشة"ص(15)

ولكن الوضع ما لبث أن تغير جذريا بعد الاستقلال فأصبح الغرب المهرب الذي يلتجئ إليه الجزائري فرارا من وطنه جراء ما لحقه من ظلم وضيم، فعدو الأمس أرحم من مكائد الجيران التي حاكوها ضد حسين المسرح عندما شعروا بتهديد مصالحهم فكانت نصيحة صديقه ضابط الشرطة بأن يغادر الوطن ... "هل أنت مستعد للسفر؟؟

- إلى أين ؟
- إلى خارج الوطن ...
- ولكن!
- ...
- موقعك بالخارج يمنحك الفرصة للدفاع عن نفسك

..لا تنس جواز السفر "ص(209/210)

لكن التعلق بالوطن والحنين إلى العودة لا يفارقه ولو من خلال عودة رمزية تمثلت في روايته التي أرسل نسخة منها إلى صديقه بعد نشرها في الخارج فعودة الكتاب عودة الكاتب.

خاتمة :

إن هوية أي أمة من الأمم هي مجموع الصفات أو السمات الثقافية العامة التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الأفراد الذين ينتمون إليها والتي تجعلهم يعرفون ويتميزون بصفاتهم تلك عما سواهم من أفراد الأمم الأخرى.

والاختلاف في مقومات الهوية الفردية والقومية هو اختلاف في النوع وليس في الدرجة فالهوية الفردية ذات سمات جسدية الأساس والهوية القومية ذات سمات ثقافية في الأساس فلا يوجد تناقض بينهما بل مترابطتان، والعلاقة بينهما علاقة الجزء بالكل.

الهوامش:

– 1جمال شحيد ووليد قصاب،خطاب الحداثة في الأدب –الأصول والمرجعية –، دار الفكر،سوريا،ط1، ص 429

– 2المرجع نفسه ص 429

– 3محمد محمود شاويش،نحو ثقافة تأصيلية(البيان التأصيلي)، الدار العربية للعلوم،بيروت،نينوي للدراسات والنشر والتوزيع،سوريا، ط2007 1، ص 32

– 4محمد حسن البرغثي،الثقافة العربية والعولمة،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت،ط1، ص 115

– 5الميلودي شغموم،المتخيل الهوية(الكرامات أنموذجا)، مجلة بصمات،جامعة الحسن الثاني،المحمدية الدار البيضاء،ع4، 1990، ص 25

–6محمد حسن البرغثي، مرجع سابق، ص 116

– 7 رشدي أحمد طعيمة/محمود كامل الناقة، اللغة العربية والتفاهم العالمي، –المبادئ والآليات،دار المسيرة، الأردن، ط1، 2009، ص 59

– 8أدونيس، موسيقى الحوت الأزرق)الهوية، الكتابة والعنف (، دار الآداب، بيروت،ط1،2002، ص106

– 9عيسى شريط، لاروكاد، منشورات الإختلاف، الجزائر، 2004 ص 164/165